الأوبئة والأمراض في ديار بكر ومواجهتها (423 – 595 هـ / 1031 – 1197م)

Challenging Epidemics and Diseases in the city of Diyar Baker

صص 10-26

د. فرج محمد عبد الله السبيعي
أستاذ مشارك، كلية الملك خالد العسكرية
الرياض/المملكة العربية السعودية
alanood19977@hotmail.com

تاريخ الإرسال2019/09/04 تاريخ القبول: 2019/10/05

الملخص

يتحدث هذا البحث عن الأوبئة والأمراض في مدينة ديار بكر وأثرها على السكان من حيث الجانبين الاقتصادي والاجتماعي، فقد يتسبب انتشارها على نطاق واسع في الإقليم وخارجه، ولا سيما وباء الطاعون الذي أهلك كثيراً من سكان ديار بكر.

كما تناولت الدراسة الآثار الاقتصادية والاجتماعية لهذه الأوبئة والأمراض، وشكلت تحدياً للإنسان مما خلفته من آثار سيئة على حياة الناس.

وركزت الدراسة على الطرق والوسائل التي تكافح أو تحد من انتشار الأوبئة والأمراض في ذلك العصر، فقد ساهم الأطباء في معالجة ومداواة المرضى وصرف الأدوية والعقاقير للناس للتخفيف من معاناتهم ومشاكلهم الصحية.

Abstract:

This research addresses the epidemics and diseases in Diyarbakir city and its impact on the population in terms of economic and social aspects. The spread of these epidemics and

diseases can lead to the death of many populations inside and outside of the territory, especially the plague epidemic that devastated many of the population of Diyarbakir.

The study also dealt with the economic and social effects of these epidemics and diseases and posed a challenge to humans, which had a negative impact on people's lives.

The study also focused on methods and means used to combat or limit the spread of epidemics and diseases in that era, as the physicians contributed in the treatment and cure of patients and dispensing the medications for people to alleviate their suffering and health problems.

Key word: Epidemics, Diseases, Population, environment, health, pollution

مقدمة:

شكلت الأوبئة والأمراض هاجساً مخيفاً في حياة سكان ديار بكر إذ تعرض هذا الإقليم خلال فترة البحث (423-595هـ / 1031-1197م) لعدد كبير من الأوبئة والأمراض الخطيرة، والتي تركت أثراً عميقاً على ساكنيه من حيث الوفيات.

وأيضاً انعكس هذا الأمر على تدهور النشاط السكاني الممثل في النشاط الحرفي مثل الزراعة والصناعة، وكانت هذه الأوبئة لا سيما الطاعون، والذي يؤدي إلى ضحايا كثيرة من السكان على اختلاف طبقاتهم.

كما تناولت هذه الدراسة كيفية مواجهة هذه الأوبئة من قبل الحكام والعامة في ذلك الإقليم الذي تمثل في تشييد البيمارستانات، واستقطاب الأطباء وتشجيعهم ودعمهم للمحافظة على صحة وسلامة الناس.

1- الموقع الجغرافي لديار بكر:

حدود إقليم ديار بكر هي بلاد كبيرة واسعة تقع غربي نهر دجلة إلى بلاد الجبل المطل على نصيبين[1].

ويقول القزويني[2]: "ناحية ذات قرى ومدن كثيرة بين الشام والعراق، وقصبتها آمد ومن مدنها، ميافارقين، ماردين، حصن كيفا، اسعرو خرتبرت، جزيرة ابن عمر[3].

2- الأوبئة والأمراض:-

يُعرف الوباء: بأنه مرضٌ معدٍ ينتشر في منطقة ما، ويصيب العديد من سكان تلك المنطقة[4]. وتعرّفه منظمة الصحة العالمية بأنه تفشّي المرض بأسلوب غير متوقع ويستدعي الاستنفار[5].

والفرق بين الوباء والطاعون، أن الطاعون أخص من الوباء، فكل طاعون وباءٌ وليس كل وباءٍ طاعوناً[6].

يعتبر الطاعون مرضاً وبائياً معدياً، ينتقل إلى الإنسان عن طريق القوارض كالفئران[7].

ويعرف الطاعون بأنه نوع من الوباء وهو عند أهل الطب ورم رديء قتال يصاحبه حرارة شديدة مؤلمة، وفي الأكثر يحدث في ثلاثة مواضع: في الإبط وخلف الأذن، والأرنبة وفي اللحوم الرخوة[1].

1- الحموي، ياقوت بن عبد الله (ت 660هـ/ 1276م)، معجم البلدان، تحقيق: فريد عبدالعزيز الجندي، بيروت، دار الكتب العلمية، 1410هـ/ 1990م، جـ2 ، ص 561-562.

2- القزويني، زكريا محمد (ت 682هـ/ 1283م)، آثار البلاد وأخبار العباد، بيروت، دار صادر، ص 368.

3- الحموي، معجم البلدان، جـ 2 ، ص 561-562.

4- البار، محمد علي، العدوى بين الطب وحديث المصطفى صلى الله عليه وسلم، ط4، الرياض، الدار السعودية، 1401هـ/ 1981م، ص88.

5- منظمة الصحة العالمية http://www.who.int/ar

6 - السيوطي، جلال الدين عبد الرحمن (911هـ/ 1505م) رسالة في الطاعون، مخطوط بجامعة أم القرى تحت رقم 4685؛ الزهراني، صالح بن عبدالله، الكوارث وآثارها في بلاد الشام خلال القرون الثلاثة الأولى، رسالة ماجستير غير منشورة، مكة المكرمة، جامعة أم القرى، 1432هـ/ 2011م، ص60.

7- يوسف درويش غوانمه، الطاعون، والجفاف وأثرهما على البيئة في جنوب الشام والأردن (الأردن وفلسطين)، مجلة دراسات تاريخية، دمشق، العددان الثالث عشر والرابع عشر، 1404هـ/ 1983م، ص74.

ويُعرف في العصر الحديث بأنه ثلاثة أنواع: الأول: التسمي (الدموي) ويكون من تسرب الميكروبات إلى الدم، والثاني الرئوي وفيه تصاب الرئتان، وهو أخطر الأنواع لسهولة انتقاله، والثالث: الدبلي وهو تورم في الغدة الدرقية[2].

ولقد تعرضت ديار بكر خلال فترة البحث لعدد من الأوبئة والأمراض، لكن تعد الأوبئة من أشد الكوارث فتكاً وأكثرها فناءً للبشرية.

ولم تقتصر الإصابة بالأوبئة على سكان المدن، يبدو أنه امتدت لتشمل أعداداً كبيرة من سكان القرى والأرياف، انعكس أثرها مجملاً على حياة الناس، فبموت أصحاب المهن والحرف كالمزارعين مثلاً، يتعطل الإنتاج الزراعي ونقل الأقوات وتندر، وبإصابة التجار بالوباء يتأثر القطاع التجاري تأثراً بالغاً، فترتفع أسعار السلع حتى يعجز الناس عن شرائها إن وجدت.

وعلى المستوى الديموغرافي، فإن موت أنفس كثيرة من سكان ديار بكر، أدى بمرور الوقت إلى إحداث خلل واضح في الكثافة السكانية انعكست آثاره سلباً على مختلف ميادين الحياة كافة، يضاف إلى ذلك أن انتشار الأوبئة يؤدي مع مرور السنين إلى نقص معدلات النمو السكاني وينذر بتوقفها، ومن ثم حدوث تغييرات اجتماعية وديمغرافية جمة، خاصة في القرى والأرياف التي قد تخلو من ساكنيها.

ورغم كثرة الأوبئة التي أصابت ديار بكر، فإن من الملاحظ أن المصدر نادراً ما يتعرض إلى وصف أعراض الأوبئة التي كانت تصيب السكان أو ذكر أسبابها، وفي المقابل فقد أهتم المصدر التاريخي إلى تناول فترة موضوع البحث، بذكر الأوبئة التي أصابت سكان ديار بكر.

---

1 - الرازي، محمد بن بكر ، (ت313هـ/ 925م) كتاب الحاوين صححه: محمد عبد المعيد خان، ط1، الهند، مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية بحيدر أباد الدكن، 1384هـ/ 1964م، ج17، ص4 ؛ ابن قيم الجوزية، شمس الدين محمد بن أبي بكر (ت 751هـ/ 1350م) الطب النبوي، صححه وأشرف على التعليقات: عبدالغني عبدالخالق، بيروت، دار القلم، ص33.

2- محمد حمزة، الكوارث الطبيعية، ص 20 – 21 .

يذكر أنه في سنة (423هـ/ 1031م) أن الناس استسقوا ولم يسقوا، فحدث بعد ذلك وباء عظيم عمّ بلداناً كثيرة منها ديار بكر والعراق والشام وخراسان والهند[1]، وتزامن مع هذا الوباء الخطير مرض آخر هو الجدري[2].

إذ أورد ابن الجوزي [3] نصاً يبين ذلك قائلاً: "استمر الجدري في حزيران وتموز وأيلول الأول والثاني وكان ذلك في الصيف أكثر من الخريف حيث استمر ما يقارب ستة أشهر مما أدى إلى هلاك وموت كثير من الناس فضلاً عن المصابين حينما حدث هذا الوباء ومرض الجدري في فترة واحدة حتى قيل أنه لم تسلم دار منها"، وممن أصيب بمرض الجدري الذي اكتسح العراق أيضاً في السنة المذكورة سلفاً الخليفة العباسي القائم بأمر الله (422-467هـ/ 1030-1074م) وشفي منه[4].

كما شهدت ديار بكر والعراق والشام والموصل وغيرها من الأقطار الإسلامية سنة (425هـ/ 1033م) مرض الخوانيق[5] الذي تفشى بين الناس وفتك بهم وأدى إلى

1- ابن الجوزي، عبد الرحمن بن علي (ت597هـ/ 1201م) المنتظم في تاريخ الملوك والأمم، تحقيق: محمد عبد القادر ومصطفى الجوهري، ط1، بيروت، دار الكتب العلمية، 1412هـ/ 1992م، جـ 15 ، ص226 ؛ ابن الأثير، علي بن الكرم (ت630هـ/ 1232م)، الكامل في التاريخ، تحقيق: مكتب التراث، ط4، بيروت، دار إحياء التراث العربي، 1414هـ/ 1994م، جـ 6، ص67.

2- الجدري: قروح في البدن تنقط على الجلد ممتلئة ماء ويتميز بطفح جلدي عام، كما يتميز بوجود حويصلات مصلية وصديدية تنتشر في الجسم، المظفر الرسولي يوسف بن عمر (ت694هـ/ 1294م) المعتمد في الأدوية المفردة للعلاج بالأعشاب والنباتات، تحقيق: محمد عزت، القاهرة، دار الفضيلة، ص510 ؛ ابن منظور، لسان العرب، ج3، ص104 ؛ كمال السامرائي، تاريخ الطب العربي، بغداد، وزارة الثقافة والإعلام، 1985م، ج2، ص282.

3- ابن الجوزي، المنتظم، ج15، ص227.

4- ابن الجوزي، المنتظم، ج15، ص227. ابن كثير، اسماعيل بن علي (ت774هـ/ 1372م) البداية والنهاية، تحقيق: أحمد أبو مسلم، ط3، بيروت، دار الكتب العلمية، 1407هـ/ 1987م، ج12، ص36.

5- الخوانيق: هي امتناع نفوذ النفس إلى الرئة والقلب وتؤثر هذه الخوانيق بصداع وحمى وصعود البلغ وتورم الغدد الليمفاوية، ابن سيناء، أبو علي، الحسين بن عبد الله (ت428هـ/ 1041م)، القانون في الطب، ط1، نوبيلس، 1999م، ج5، ص147.

وفاة أعداد كبيرة من البشر[1]، ومن قسوة هذا المرض كانت تغلق أبواب الدار على أهلها لموتهم جميعاً[2].

كما تعرضت ديار بكر سنة (439هـ/ 1047م) لغلاء فاحش حتى أكل الناس الميتة، وتبعه وباء شديد انتشر بين الناس وأسفر عن خسائر كبيرة ،ولم تكن المناطق المجاورة بمنأى عن هذا الوباء بل امتد إلى الموصل وبغداد، ولم تشر المصادر التاريخية إلى نوع هذا الوباء[3].

وعاد الوباء مرة أخرى إلى ديار بكر سنة (440هـ/ 87م) وكان وباءً شديداً عاماً حيث اكتسح عدداً من البلدان منها العراق والشام ومكة المكرمة ومصر، وأجهز على حياة أعداد كبيرة من الخلق[4].

وفي سنة (448هـ/ 1056م) تفشى وباء شديد كانت وطأته على الناس مؤلمة امتد من الشام إلى العراق وديار بكر مروراً بالموصل والحجاز ومصر واليمن؛ حتى قيل أنه يموت في اليوم ألف شخص[5].

وحدث في سنة (469هـ/ 1076م) وباء عظيم شمل ديار بكر والعراق والشام حيث فتك بأكثر الناس، ومن أهم آثار ذلك الوباء هو غياب اليد العاملة وعدم وجود من يقوم بأعمال المحاصيل الزراعية لكثرة الموت في الناس[6].

1- الأنطاكي، يحيى بن سعيد (ت458هـ/ 1066م) تاريخ الأنطاكي، تحقيق: عمر عبد السلام تدمري، لبنان، جروس برس، 1990م، ص187 ؛ ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج6، ص75.

2- ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج6، ص75.

3- ابن الجوزي، المنتظم، ج15، ص96.

4- ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج6، ص93 ؛ ابن الوردي، عمر بن المظفر (ت749هـ/ 1348م) تاريخ ابن الوردي، النجف، المطبعة الحيدرية 1389هـ/ 1969م، ج1، ص517.

5- ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج6، ص193 ؛ ابن العبري، أبو الفرج جمال الدين (ت685هـ/ 1286م) تاريخ العبري، نقله إلى العربية: إسحاق أرمله، بيروت، دار المشرق، 1986م، ص100 ؛ ابن تغري بردي، جمال الدين أبي المحاسن (ت874هـ/ 1469م)، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، علّق عليه: محمد حسين شمس الدين، ط 1، بيروت، دار الكتب العلمية، 1413هـ/ 1992م، ج5، ص60.

6- الأصفهاني، محمد بن صفي الدين (ت597هـ/ 1201م) البستان الجامعة لجميع تواريخ أهل الزمان ، تحقيق: عمر عبدالسلام تدمري، ط1، بيروت، المكتبة المصرية، 1423هـ/ 2002م، ص243؛ ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج6، ص273.

كما شهدت ديار بكر سنة (478هـ/ 1086م) حدوث عدد من الأوبئة والأمراض، وكان وباء الطاعون انتشر في ديار بكر وأمتد إلى العراق والشام والحجاز وتزامن معه تفشي موت الفجأة ثم أعقبه انتشار مرض الجدري بين الأطفال، كما تعرض عدد من سكان هذه الأقاليم والمدن إلى إنتشار مرض الخوانيق، ومات جرّاء هذه الأوبئة والأمراض خلق كثير[1]، حتى قيل إن قرى كثيرة خلت من قاطنيها[2].

ووقع مرض الجدري سنة (498هـ/ 1104م) في ديار بكر وبلدان أخرى ولا سيما العراق وماتت به أمم لا يحصون، ثم أعقبه وباء شديد وموت عظيم[3]، ولم تُشِر المصادر التاريخية ما نوع هذا الوباء الذي أفنى الناس.

وفي سنة (517هـ/ 1123م) حدث وباء شمل كل البلدان الإسلامية بما فيها ديار بكر، وكان قوة تمركز هذا الوباء في العراق[4].

كما حدث أمراض سنة (532هـ/ 1137م) في ديار بكر والعراق وأصفهان وكثر الموت الفجأة[5].

وفي سنة (541هـ/ 1156م) أصاب الناس داء في حلوقهم عمّ ديار بكر والشام والعراق، وزادت قوته حتى هلك من هذا المرض خلق كثير[6].

يذكر أنه انقطعت الأمطار سنة (574هـ/ 1179م) عن سائر ديار بكر وبلاد الشام والعراق والموصل وغيرها من مختلف البلدان، وانتشر الغلاء، وشحت الأقوات، وأكلت الناس الميتة، ثم أصاب الناس مرض يعرف بمرض السرسام[7]، وتفشى بينهم

1- ابن الجوزي، المنتظم، ج16، ص240 ؛ ابن كثير، البداية والنهاية، ج12، ص35، ؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج5، ص108.

2- ابن العبري، تاريخ الزمان، ص119.

3- ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج6، 453.

4- ابن الجوزي، المنتظم، ج16، ص289 ؛ ابن كثير، الكامل في التاريخ، ج6، ص519، ؛ ابن أبيك الدواداري، ابو بكر بن عبدالله (ت735هـ/ 1334م)، كنز الدرر وجامع الغرر لدرة السنية في أخبار الدولة العباسية، تحقيق: دور وتياكر افولسكي، بيروت، المعهد الألماني للآثار، ج6، ص143.

5- ابن الجوزي، المنتظم، ج17، ص64 ؛ ابن كثير، الكامل في التاريخ، ج27، ص18.

6- ابن الجوزي، المنتظم، ج17، ص93 ؛ ابن كثير، الكامل في التاريخ، ج27، ص47.

7- السرسام هو: ورم حاد في الدماغ، أو في الأغشية المحيطة به، وعلامته حمى قوية وهذيان، واحمرار العين ويعرف اليوم بالتهاب السحايا، الخوارزمي، أبي عبدالله محمد بن أحمد (ت387هـ/997م)، ص186: أ.آشتور، التاريخ

وأستمر سنتين أي حتى مستهل سنة (576هـ)، وكان الناس منشغلون بدفن الموتى[1]، وقد وصف ابن الأثير[2] حجم هذا المرض بقوله: "فمات فيه من كل بلد أمم كثيرة لا يحصون، ولقي الناس منه ما أعجزهم حمله، ثم إن الله عز وجل رفعه عنهم في سنة ست وسبعين وخمسمائة، ويتحدث ابن كثير عن حال الناس من هذا المرض فيقول: فمات بسبب ذلك خلق كثير وأمم لا يعلم عددهم إلا الله تعالى".

وانتشرت الأمراض بين الناس في مدينة ماردين احدى مدن ديار بكر، وهلك خلق كثير فيها بعد أن قلّت الأقوات عندهم، وذلك في سنة 595هـ/1197م)[3].

ويرجح الدارس أن مدينة ميافارقين هي أكثر مدن ديار بكر تضرراً من الأوبئة والأمراض للأسباب التالية:

1-يذكر الإصطخري[4]: "إن ميافارقين وخمة كثيرة العلل والوباء والمياه تجري في منازلها وأسواقها"، كما يشير ابن حوقل[5] عن ميافارقين يقول: "أن في هوائها وخامة ما".

2- كانت ميافارقين مقر سلطان الإمارة المروانية (372-489هـ/ 983-1096م) - وتلك الفترة تدخل ضمن الإطار الزمني للبحث-، فأضحت مركزاً تجارياً وثقافيا تُشد لها

الاقتصادي والاجتماعي بالشرق الأوسط في العصور الوسطى، ترجمة: عبدالهادي عبلة، دمشق، دار قتيبة، 1985م، ص283.

1- ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج7، ص274 ؛ أبو شامة، شهاب الدين عبد الرحمن ابن إسماعيل (ت665هـ/ 1267م) كتاب الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية، تحقيق: إبراهيم الزيبق، ط1، بيروت، مؤسسة الرسالة، 1418هـ/ 1997م، ج3، ص18 ؛ ابن كثير، البداية والنهاية، ج12، ص320 ؛ المقريزي، أحمد بن علي: (ت845هـ/ 1441م) السلوك لمعرفة دول الملوك، تحقيق: محمد عبد القادر، ط1، بيروت، دارا لكتب العلمية، 1418هـ/ 1997م، ج1، ص217.

2- ابن الأثير، التاريخ الباهر في الدولة الأتابكية، تحقيق: عبد القادر أحمد طليمات، القاهرة، دار الكتب الحديثة، 1382هـ/ 1963م، ص178، 179.

3- ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج7، ص438.

4- الاصطخري، إبراهيم بن محمد (ت346هـ/ 957م)، المسالك والممالك، تحقيق: محمد جابر، الجمهورية العربية المتحدة، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، 1381هـ/ 1961م، ص53.

5- ابن حوقل، محمد بن علي (ت 367هـ/ 977م) صورة الأرض، بيروت، دار مكتبة الحياة، ص224.

الرحال من الأقطار الإسلامية وغيرها فأصبحت ذات كثافة سكانية، مما يهيئ مجالاً لانتقال الأوبئة والعلل بين الناس.

ومن نافلة القول أن هذه الأمراض والأوبئة حينما تفتك بالناس تتسبب في إحداث خلل كبير في مجالات الحياة سواء المجال الاجتماعي أو الاقتصادي أو الثقافي أو غيرها ؛ مما يؤدي إلى إلحاق أضرار فادحة بالقطاع الزراعي والثروة الحيوانية بشكل كبير، وكذلك يتضح تأثيرها على غلاء أسعار المعيشة في مختلف المواد الغذائية وغيرها من السلع الضرورية التي يحتاجها الإنسان في حياته اليومية، إذ بفقدان هذه السلع سيفقد خلق كثيرون حياتهم ما يعني نقص العنصر البشري.

3- كيفية مواجهتها:

شكلت الأوبئة والأمراض خطراً على حياة الناس، وتعتبر هذه العلل من أخطر الكوارث التي تؤثر تأثيراً مباشراً على الحياة البشرية، لما لها من نتائج وخيمة على المجتمعات بأسرها، فقد أهتم خلفاء وسلاطين الدولة العباسية بمواجهة عواقب هذه الكوارث بإنشاء البيمارستانات (المستشفيات) وأولوها عناية فائقة لمواجهة الأوبئة، والحد من انتشارها والمحافظة على صحة الناس ومداواة المرضى، وكانت المستشفيات تضم عدداً من الأطباء والحكماء والممرضين، وتختلف من حيث سعتها وتنظيمها وعدد العاملين بها، وكانت تستمد بقائها من الهبات والأوقاف التي كانت تحصل عليها من أصحاب الثروة واليسّار من الخلفاء والأمراء وميسوري الحال وغيرهم[1].

وأخذت البيمارستانات في ازدياد بعد ذلك في حواضر العالم الإسلامي آنذاك[2]، وتعددت أنواعها ومسمياتها، وذلك بتعدد خدماتها وطرق إنشائها والغرض

1- للوقوف على المزيد عن أوضاع البيمارستانات في الدولة الإسلامية، انظر: أحمد، عيسى، تاريخ البيمارستانات في الإسلام، ط1ب، دمشق، جمعية التمدن الإسلامي، 1357هـ/ 1939م.

يُعد الخليفة الوليد بن عبد الملك (86-96هـ/ 704-715م) أول من أنشأ بيمارستانات للمرضى سنة 88هـ/ 706م، وخصص له الأطباء وغيرهم من العاملين بها، وحدد لهم المرتبات والأرزاق؛ ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج2، ص173.

2- أحمد، عيسى، تاريخ البيمارستانات، ص16.

من بنائها[1]، وكان يراعى مكان اختيار البيمارستان خطوة مهمة جداً فيما بتعلق بالجوانب الصحية والبيئية التي يتصف بها الموقع، وقد أعتنى المسلمون بهذا الأمر وأولوه عنايةً كبيرةً، فكانوا لا يبنون البيمارستان إلا في أفضل الأماكن وأحسنها نظافة وصحةً كضفاف الأنهار وينابيع المياه[2].

وقد شهدت ديار بكر اهتماماً ممن تعاقب على حكمها من الأمراء خاصة فترة الإمارة المروانية، فأولوا هذه البيمارستانات جلَّ إهتمامهم، وتأتي في طليعتها بيمارستان مدينة مافا، ولعله أول بيمارستان شهدته المدينة، فقد أنشأ في عهد الأمير نصر الدولة[3] يذكر أن الطبيب أبو سعيد منصور بن عيسى المعروف بزاهد العلماء (ت460هـ/ 1067م) أبرز أطباء الإمارة المروانية هو الذي شجع الأمير على بناء بيمارستان فيها سنة (414هـ/1019م) [4].

حيث تعرضت إحدى بنات أمير ميافارقين نصر الدولة مرضاً شديداً وتمت معالجتها حتى شُفيت من مرضها على يد أحد الأطباء واسمه زاهد العلماء، وأراد الأمير إعطائه أموالاً كثيرة له؛ فأشار عليه ببناء البيمارستان للإفادة[5].

وأمر في الحال نصر الدولة ببناء بيمارستان، وأنفق في سبيله كل ما يحتاج من المال والآلات والأملاك، وأشرف على بنائه وتولية عمارته الطبيب أبو السعيد عبيدالله بن بخيتشوع (ت450هـ/ 1058م) [1].

1- الحازمي، ناصر محمد، الحركة العلمية الطبية في بلاد الشام زمن الحروب الصليبية رسالة دكتوراه غير منشورة، جامعة أم القرى، مكة المكرمة 1426هـ/ 2005م، ص142.

2- حنيفة، الخطيب، الطب عند العرب، بيروت، الأهلية للنشر، 1988م، ص218 ؛ ناصر الحازمي، الحركة العلمية، ص172.

3- أحمد بن مرون الملقب بنصر الدولة تولى الإمارة المروانية سنة (401 – 453هـ/ 1011– 1061م) اهتم بشؤون الإمارة ، عين الولاة والإداريين، اتخذ من مدينة ميافارقين حاضرة للإمارة. (الفارقي، أحمد بن يوسف (ت572هـ/1179م) تاريخ الفارقي، تحقيق: بدوي عبداللطيف، القاهرة، إدارة إحياء التراث، 1379هـ/ 1959م، ص122-127.

4- الفارقي، تاريخ الفارقي، ص134.

5- الفارقي، تاريخ الفارقي، ص137 ؛ ابن أبي أصيبعة، أحمد بن القاسم (ت86هـ/ 1269م) عيون الأنباء في طبقات الأطباء، بيروت، دار الثقافة، 1399هـ/ 1979م، ج1، ص324.

ويذكر ابن شداد[2] بوجود بيمارستان في جزيرة عمر، وكذلك وجود بيمارستان في ارزن لكن المصدر لا يذكر أي تفاصيل عنه هذا البيمارستان بأي شكل من الأشكال.

ومما لا شك فيه أن هذه البيمارستانات لعبت دوراً كبيراً في تقديم الخدمات الطبية من معالجة المرضى وصرف الأدوية والعقاقير، والتخفيف من المعاناة التي تصيب سكان ديار بكر، وأهتم الأطباء بالأدوية والعلاجات لمكافحة الأوبئة والأمراض وقاموا بدراسة النباتات والأعشاب التي يتم استخلاص الأدوية منها.

ومجمل القول إن علم الصيدلة وصناعة الأدوية بديار بكر، لقيت عناية فائقة وذلك لارتباطها بالطب, وما وصل إليه من تطور في ذلك العصر، فهناك عدد غير قليل من الأطباء كان لهم صيت كبير في مجال صناعة الدواء[3].

ومن الأساليب التي أستخدمت في مواجهة الأوبئة إنشاء الحمامات في ديار بكر، وتُعد من المؤسسات الاجتماعية العامة في المجتمع الإسلامي، وكانت مركزاً للراحة النفسية والاجتماعية، ومنشأةً صحية للعلاج من الأمراض المختلفة وللحمامات ومنافع كثيرة منها معالجة الحكة والجرب والبلغم، وكان الناس يقصدونها من مختلف الطبقات للاستحمام، وكان منها ما هو مخصص للذكور وآخر للإناث، ويقوم على خدماتها أناس متخصصون[4].

وانتشرت هذه الحمامات في ديار بكر حيث لم تخلُ منها مدينة من مدنها[5]، ولأهميتها أصبح لها أوقاف يُصرف ريعها عليها بصفتها من الأبنية ذات النفع العام[6]،

1- الفارقي، تاريخ الفارقي، ص138 ؛ محمد، أكو برهان، الحياة الثقافية في ديار بكر في العصر العباسي، أربيل، 2012م، ص90.

2- ابن شداد، محمد بن علي (ت684هـ/ 1285م) الأعلاق الخطيرة في ذكر أمراء الشام والجزيرة، تحقيق: دومينيك سورديك، دمشق، المعهد الفرنسي للدراسات العربية، 1953م، ص232.

3- ابن أبي أصيبعة، عيون الأنباء. ج1، ص327.

4- الفارقي، تاريخ الفارقي، ص137 ؛ ابن شداد، الأعلاق الخطيرة، ص232.

5- الحزمي، ناصر، الحركة العلمية، ص75.

6- محمد، منير كمال، حمامات دمشق مآثرها حضارة وتراث، مجلة التاريخ العربي، العدد9 ، 1419هـ/ 1999م، ص182.

وتشير المصادر التاريخية أنه أُنشئ عدداً كثيراً من الحمامات في مدينة آمد، وميافارقين، وتميزت بضخامة مبانيها؛ وهذا دليل على مدى اهتمام الناس في ديار بكر خلال هذه الحقبة من تاريخهم (فترة الدراسة) على مدى ما حصلوا عليه من الرعاية الصحية الجيدة ووسائل النظافة[1].

ويذكر ابن المطران[2] في كتابه "بستان الأطباء" فصلاً مستقلاً عن كيفية استخدام الحمامات الطبية؛ لأنه يمثل طريقة من طرق العلاج وحفظ الصحة، وذكر جملةً من الوصايا والملاحظات من كلام الأطباء عن استعمال الحماماتَ ومنافعها، فمن ذلك قوله: "إذا أردت أن تجفف بدن الإنسان في الحمام فاجعل وقود الحمام حطب البلوط والسرو وما شاكلها، وإن أردت أن ترطب فاجعل وقود الحطب الطرفان والتوت وحشيش سنبل الشعير وحطب الصفصاف والدلب والعناب والأجاص وما شاكلها، وإن أردت تحليل بدن، فاجعل وقود الحمام شفش الكرم الأحمر خاصة، وحشيش الأقحوان وتين الحنطة والبابونج مجموعة ومفرقة.

ومن هذا يتضح للقارئ مدى الاهتمام والعناية من قبل الأطباء بالحمامات، وبيانهم الطرق السليمة في استعمالاتها، لما ذلك من أثر في صحة الناس نفعاً وضرراً[3]، ويمكننا أن نستنتج من هذا أن التقيد بهذه النصائح وإتباعها من قبل عامة الناس وخاصتهم، ما فيه من الوسائل التي تؤدي بإذن الله تبارك إلى منع حدوث الأوبئة والأمراض الفتاكة، التي تؤدي حدوثها – لا سمح الله – إلى إهلاك الحرث والنسل، وقديماً قيل درهم وقاية خير من قنطار علاج.

وكان هناك نوع آخر من الحمامات ذات الخصائص العلاجية، وهي تلك التي تُبنى على البحيرات والعيون الساخنة التي يؤمها الناس للاستشفاء وهي كثيرة في ديار بكر[4].

1- الفارقي، تاريخ الفارقي، ص138 ؛ ابن شداد، الأعلاق الخطيرة، ص323.

2- ابن المطران، اسعد بن إلياس (ت587هـ/ 1191م) بستان الأطباء وروضة الألبَّاء، تحقيق: عبدالكريم أبو شويرب، ط1، ليبيا، جمعية الدعوة الإسلامية العالمية، 1426هـ، ص81.

3- الحازمي، ناصر، الحركة العلمية، ص77.

4- القزويني، أخبار البلاد، ص150-151؛ ناصر الحازمي، الحركة العلمية، ص78.

أما بالنسبة لعامة الناس فقد قام التجار وغيرهم من أهل الثراء بالإتجار بالمواد الطبية وجلبها من الصين والهند إلى ديار بكر وغيرها، مثل خشب الصندل والزيوت النباتية العلاجية، وقد ورد ذكر شيء يُعرف بـ ترياق القدس، كان يستعمل ضد لدغ الأفعى[1]، وهذا يدل على مدى التطور في صناعة الأمصال المضادة لبعض الأمراض التي بلا شك كان للحكام وأثرياء عامة الناس دور كبير في توفيرها.

وهناك أهل الحوانيت والعطارون الذين يقومون ببيع الأشربة والأدوية والمراهم والمعالجين في الأسواق مثل سوق العطارين في ميافارقين، وكان للطبيب أبي سالم حانوت من ضمن أسواق العطارين[2].

ومن الأساليب التي اتبعها الناس في مواجهة الأوبئة؛ الهروب من أماكن الوباء إلى الأرض الخالية والسليمة من الأمراض.

أما بالنسبة للعلاجات النباتية فقد اشتهرت ديار بكر بمحاصيل زراعية تستخدم كعلاج لبعض الأوبئة والأمراض، وذلك بفضل وفرة مياهها وكثرة أنهارها وخصوبة أراضيها، وكانت بعض الأشجار والنباتات التي تُزرع كغذاء، إلا أنه إلى جانب ذلك كان لها فوائد صحية جيدة، إضافة إلى استخدامها كعلاج لبعض الأوبئة والأمراض، ويُعد الزيتون أحد هذه النباتات التي لها فوائد صحية، وتدخل مركباته في معالجة أورام الحلق والسعال[3].

الخاتمة:

لقد خلصت هذه الدراسة إلى العديد من النتائج من أهمها ما يلي:

1) أظهرت هذه الدراسة أن وباء الطاعون من أشد الأوبئة فتكاً وهلاكاً بالمجتمع دون غيره من الأمراض.

1- زيادة، نقولا، تجارة بلاد الشام الخارجية في العصر العباسي، (132-451هـ/ 750-1051م) عمان، المؤتمر الدولي الخامس لتاريخ بلاد الشام، 1412هـ/ 1992م، ص309.

2- الفارقي، تاريخ الفارقي، ص138 ؛ ابن شداد، الأعلاق الخطيرة، ص273.

3- ابن فضل الله العمري، أحمد بن يحيى (ت749هـ/ 1384م) مسالك الأبصار في ممالك الأمصار، في الحيوان والنبات والمعادن، تحقيق: عبدالحميد صالح حمدان، ط2، مصر، مكتبة مدبولي، 1996م. ص114

2) كشفت هذه الدراسة ان هذه الأوبئة والأمراض كان لها تأثيراً اقتصادياً بتراجع المستوى المعيشي في ديار بكر، وأصبح الفقر والعوز هو الغالب على السكان في بعض السنوات، وتوقف الحياة الزراعية ؛ وبالتالي انعكس ذلك على الصناعة والتجارة.
3) أوضحت الدراسة أن من هذه الأوبئة والأمراض كان لها آثار اجتماعية قوية مؤثرة على سكان ديار بكر من خلال نزوح بعض سكانها إلى مناطق أخرى، وموت الكثير منهم بسبب اكتساح تلك الأوبئة.
4) تبيّن الدراسة أن حكام ديار بكر - خلال فترة الدراسة - اهتموا بمواجهة الأوبئة والأمراض ببناء المستشفيات للحد من انتشارها.
5) أظهرت الدراسة أن حكام ديار بكر خلال فترة البحث حرصوا على تشييد الحمامات لكي يستفيد منها الناس لمنافع كثيرة منها النظافة.

البيبلوغرافيا:

1- ابن أبي أصيبعة، أحمد بن القاسم (ت866هـ/ 1169م)،عيون الأنباء في طبقات الأطباء، بدون، دار الثقافة ، 1399هـ/ 1979م.

2 - ابن الأثير، علي بن الكرم (ت630هـ/ 1232م)،الكامل في التاريخ، تحقيق مكتب التراث، ط4، بيروت دار إحياء التراث العربي، 1414هـ/ 1994م.

3- التاريخ الباهر في الدولة، الأتابكية، تحقيق: عبد القادر أحمد طليمات، القاهرة، دار الكتب الحديثة، 1382هـ/ 1963م.

4-الاصطخري، إبراهيم بن محمد (ت346هـ/ 957م).المسالك والممالك، تحقيق محمد بن جابر، الجمهورية العربية المتحدة، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، 1381هـ/ 1961م.

5-الأصفهاني، محمد بن صفي الدين (ت597هـ/ 1201م)، البستان الجامعة لجميع تواريخ أهل الزمان، تحقيق عمر عبدالسلام تدمري، ط1، بيروت، المكتبة العصرية، 1423هـ/ 2002م.

1- 6- لأنطاكي، -يحيى بن سعيد (ت458هـ/ 1066م)، تاريخ الأنطاكي، تحقيق: عمر عبدالسلام تدمري، لبنان، جروس برس، 1990م.

7-ابن ايبك الدواداري، أبو بكر بن عبد الله (ت735هـ/ 1334م)، كنز الدرر وجامع الغرر، لدرة السنية في أخبار الدولة العباسية، تحقيق: دور وتياكر افولسكي، بيروت، المعهد الألماني للآثار.

8-ابن تغري بردي، جمال الدين أبي المحاسن (ت874هـ/ 1469م)، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، علق عليه: محمد حسين شمس الدين، ط1، بيروت، دار الكتب العلمية، 1413هـ/ 1992م.

9-ابن الجوزي، عبد الرحمن بن علي (ت597هت/ 1201م)،المنتظم في تاريخ الملوك والأمم، تحقيق: محمد عبدالقادر ومصطفى الجوهري، إسماعيل حمد (ت393هـ/ 1003م).

10-الحموي، ياقوت بن عبدا لله (ت626هـ/ 1228م)، معجم البلدان، تحقيق: فريد عبد العزيز الجندي، بيروت، دار الكتب العلمية، 1410هـ/ 1990م.

11-ابن حوقل، محمد بن علي (ت367هـ/ 1977م)، صورة الأرض، بيروت، دار مكتبة الحياة.

12- الرازي، محمد بن بكر (ت313هـ/ 925م)كتاب الحاوي، صححه: محمد عبدا لمجيد، ط1، الهند، مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية، 1384هـ/ 1964م.

13-ابن سينا الحسين بن عبدا لله (ت428هـ/ 1041م)، القانون في الطب، ط1، أنوبيلس، 1999م.

14-السيوطي، جلال الدين (911هـ/ 1505م)، رسالة في الطاعون، مخطوط، جامعة أم القرى، رقم (4685).

15-أبو شامة، شهاب الدين عبدالرحمن بن إسماعيل (ت665هـ/ 1267م)، كتاب الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية، تحقيق: إبراهيم الزيبق، ط1، بيروت، مؤسسة الرسالة، 1418هـ/ 1997م.

16-عيون الروضتين في أخبار الدولتين تحقيق: أحمد البيسومي، دمشق، وزارة الثقافة، 1992م.

17-ابن شداد، محمد بن علي (ت684هـ/ 1285م)، الأعلاق الخطيرة في ذكر أمراء الشام والجزيرة، تحقيق: دومينيك سورديك، دمشق، المعهد الفرنسي للدراسات العربية، 1953م.

18-ابن العبري، لأبو الفرج جمال الدين، تاريخ الزمان، نقله إلى العربية: إسحاق أرمله، بيروت، المكتبة الشرقية، 1986م.

19-الفارقي، أحمد بن يوسف (ت572هـ/ 1179م)، تاريخ الفارقي، تحقيق: بدوي عبد اللطيف، القاهرة، إدارة إحياء التراث، 1379ه/ 1959م.
20-ابن القيم الجوزية، شمس الدين محمد (ت751هـ/ 1350م)، الطب النبوي، صححه: عبد الغني عبدا لخالق، بيروت، دار القلم.
21-ابن فضل الله العمري، أحمد بن يحي (ت749ه/ 1384م)، مسالك الأبصار في ممالك ا لأمصار، في الحيوان والنبات والمعادن، تحقيق: عبد الحميد صالح حمدان، ط2، مصر، مكتبة مدبولي، 1996م.
22-القزويني، زكريا بن محمد (ت682هـ/ 1283م)، آثار البلاد واخبار العباد، بيروت، دار صادر.
23-المظفري الرسولي، يوسف بن عمر (ت694هـ/ 1294م)، المعتمد في الأدوية المفردة، تحقيق: محمد عزت، القاهرة، دار الفضيلة.
24-المقريزي، أحمد بن علي (ت845هـ/ 1441م)، السلوك لمعرفة دول الملوك، تحقيق: محمد عبدالقادر، ط1، بيروت، دار الكتب العلمية، 1418ه/ 1997م.
25-ابن كثير، إسماعيل بن علي (ت774هـ/ 1372م)، البداية والنهاية، تحقيق: أحمد أبو مسلم، ط3، بيروت، دار الكتب العلمية، 1407ه/ 1987م.
26-ابن الوردي، عمر بن المظفر (ت749ه/ 1348م)، تاريخ ابن الوردي، النجف، المطبعة الحيدرية، 1389ه/ 1969م

المراجع:

27-أحمد عيسى، تاريخ البيمارستانات في الإسلام، ط1ب، دمشق، جمعية التمدن الإسلامي، 1357ه/ 1939م.
27-أسعد المطران، بستان الأطباء وروضة الألبَّاء، تحقيق: عبد الكريم أبو شويرب، ط1، ليبيا، جمعية الدعوة الإسلامية العالمية، 1426ه.
28-حنيفة الخطيب، الطب عند العرب، بيروت، الأهلية للنشر، 1988م.
29-كمال السامرائي، تاريخ الطب العربي، بغداد، وزارة الثقافة والإعلام، 1985م.
30-محمد حمزة، الكوارث الطبيعية في بلاد الشام، فلسطين، الجامعة الإسلامية، 1430ه، 2009م.

31-منير محمد، حمامات دمشق مآثرها حضارة وتراث، مجلة التاريخ العربي، العدد9 ، 1419هـ/ 1999م.
32-ناصر محمد، الحركة العلمية الطبية في بلاد الشام زمن الحروب الصليبية رسالة دكتوراه غير منشورة، جامعة أما لقرى، مك المكرمة 1426هـ/ 2005م.
33-نقولا زيادة، تجارة بلاد الشام الخارجية في العصر العباسي، 1412هـ/ 1992م.
34-يوسف غوانمة، الطاعون والجفاف وأثرهما على البيئة في جنوب الشام والأردن، مجلة دراسات تاريخية، دمشق، العدوان الثالث عشر والرابع عشر، 1404هـ/1983م.

المواقع الإلكترونية:

منظمة الصحة العالمية http// www.who.int/ar